اختبار العبقرية

لنامل محمود حبيب

« ان سوء المعاملة والعوز يؤثران في أتعد الاطفال ذكاء فيبدو غبيا »

لعمري كيف تباينت أنصباء الناس من الذكاء ؟ ولماذا غدا بعضهم شجاعاً والبعض جباناً وبدت على بعضهم الرغبة في أن يصير قائداً واستنام الآخرون الى أن يكونوا تبعاً ، ونشأت فئة في القطرسة والكبرياء . وركنت أخرى الى الخنوع والضعة . وهكذا مما لا حصر له من الخصال المتشعبة ؟ ومن بعد ، كيف تمنح الطبيعة رجلاً منةً صافية فتسمو به في ناحية خاصة من نواحي الحياة فيبدو نجماً متألقاً في سماء الدنيا ؟

عجز العلم — حتى قريب — عن أن يفك طلاسم هذه الاسئلة ، ولكن معامل الابحاث النفسانية أخذت تحاول — حديثاً — نبش هذا الموضوع فانتهت الى ان العبقرية الفعالة هي نتيجة لأمرين متلازمين : الوراثة ، والبيئة التي أحاطت بالطفل في مطلع العمر . وحين وجد العلماء أنفسهم لا يستطيعون أن يقطعوا برأي جازم ، قالوا ان الذكاء وليد الوراثة فحسب . واذا كانت البيئة — في كثير من الاحايين — تؤثر في العبقرية الباكرة فذلك لأنها قد تدفع المرء الى غاية لا يستطيع أن يميز بين غثها وسمينها

ولقد أحلّ العلم الحديث البيئة المبكّرة المحل الاول عند تحديد الخصائص الانسانية ، ونبه المجتمع الى أمر حيوي ذي بال ، هو أن يعنى بالأفراد ذوي الكفايات الممتازة عناية خاصة منذ ظهور أول سيماء عليهم

كيف — اذن — استطاع العلماء أن يكشفوا عن العبقريات ؟ وما هو مستوى الذكاء المفرط في رأيهم ؟ هذان سؤالان لا يدفعان بنا الى الاستغراق في القسلية فحسب بل الى جدال عنيف يتناول « اختبار الذكاء »

والذكاء الخارق يتميز بسمات منها : الذاكرة الممتازة ، والسمو في الترابط العقلي والمنطقي

والقدرة على استدعاء المعلومات عند الحاجة . ومنذ سنوات قام الاختصاصيون بعمل اختبارات شملت فئات كثيرة من الناس فكشفت عن مستوى الذكاء النسبي فيهم

وفي سنة ١٩١٧ طبق الاختبار الاول « ألفا » على الجيش الاميركي ، وكان ينضم على أسئلة فيها خداع بسيط وأحاجي سهلة واختبارات للذاكرة . وبعد مئات الآلاف من هذه الاختبارات وتبهم العلماء في سمط ، واستنبطوا المستوى العادي للذكاء الذي اتخذ وحدة للقياس ، واعتبر « معدلاً للذكاء » ووضع له رقماً اختياريًا هو « ١٠٠ » فاذا قلّ ذكاء شخص عن المستوى العادي بمقدار ١٠ ٪ مثلاً قيل ان ذكاءه (م ٩٠) واذا زاد عليه بمقدار ٢٠ ٪ قيل ان ذكاءه (م ١٢٠) وهكذا...

وكانت اختبارات الذكاء مثار نقاش حاد طويل لا حاجة لنا فيه ؛ غير انهُ مما لا ريب فيه ان هذه الاختبارات هيأت معدلاً للذكاء لا ينفلت منهُ انسان مهما كانت مهنته . على ان مستوى الذكاء الذي تبينهُ الاختبارات بعد السابعة من العمر قلما يتغير بمرور الزمن

ولقد قامت جامعة إيوا بالولايات المتحدة — منذ سنوات — بسلسلة من الابحاث أثبتت ان مستوى الذكاء في كثير من الاطفال يرتفع غير قليل إن هم شعروا بعناية وانتباه ، وشعروا بالطمأنينة والهدوء . وأثبتت أيضاً ان العوز وسوء المعاملة يؤثران في الطفل الذكي فيبدو غبيًّا

وان أكثر الابحاث متعة هي محاولات بذلت لدراسة مستوى الذكاء في طفولة ثلثمائة رجل من عظماء العصر الحاضر ، معتمدة على ما جاء في كتب التاريخ عن طفولتهم

وجاءت نتائج هذه الابحاث تؤيد القضية القائلة بأن الذكاء لا يرافق — دائماً — النجاح في الحياة العملية ، على عكس ما يتراءى عادة . فلقد ظهر من هذه الابحاث ان نابليون هو أعظم عظماء التاريخ الحديث ويليه لسعة ان رتبوا فهم : فولتير وبيكن وجوتيه ولوثر وبورك وبيوتن وماتن وبت وواشنجتن . ورغم ذلك فان معدل ذكائه وهو على رأس العشرة الأوائل يماثل معدل ذكاء واشنجتن وهو الاخير فكلاهما مستوى ذكائهِ يساوي (م ١٤٠) على حين كان ذكاء بورك يعادل (م ١٦٥) ولوثر (م ١٧٠) وكل من ملتن وبيكن (م ١٨٠) وكل من نيوتن وبت وفولتير (م ١٨٥) ولكن جوتيه بذّ الجميع في ذلك فمعدل ذكائه يساوي (م ٢٠٠)

وانهُ ليبدو أن العبقرية يصحبها الذكاء البكر . وهذا هو الغالب وان لم يكن دائماً هو

الحق . فان جون ستيوارت مل تعلم الاغريقية في الثالثة من عمره ، وقرأ افلاطون في السابعة ، وفي الثامنة درس اللاتينية والهندسة والجبر وحينما كانت سنه تربو قليلاً على الثامنة كتب تاريخ رومه

ولشد ما يدهشنا أن يكون كريستيان هنيكين في الرابعة من عمره ثم هو يقرأ الالمانية ويتكلم عدة لغات ويبدو طرفاً من الرياضة والتشريح والجغرافية ، ويستظهر ١٤٠٠ عبارة مقتبسة من الادب اللاتيني . ولقد أراد ملك الدانيمارك أن يجلس الى العبقري الصغير غير أن المنية لم تمهله فاختطفته وهو في الرابعة وأربعة أشهر

ثم ان كارل ويت التحق بالجامعة في الثامنة من عمره وحصل على شهادة Ph. D في الرابعة عشرة وعاش حياة علمية عالية ناجحة مدى عمره الطويل البالغ ٨٣ سنة .

والعظيم يأتي — عادة — بالفذ من أعماله في صبح شبابه . فجوته كتب « آلام فرتر » في الخامسة والعشرين من عمره ، وملتن نظم أناشيده العبقرية ، وهو عند الحادية والعشرين وشيلنج وضع مبادئ فلسفته وهو في العشرين ، وبيت تقلد منصب رئيس الوزارة البريطانية في الرابعة والعشرين

ومنذ تسع عشرة سنة قام العالم النفساني الفذ الدكتور تيرمن بجامعة ستانفورد الأميركية ببحوث واسعة ، لبحث عن الذكاء الخارق في مدارس الاطفال على الشاطىء الپاسيفي ولا سيما في كاليفورنية . فاختبر الاطفال العديدين ، من أبناء تلك المنطقة اختبارات ذكاء متشابهة فوجد ان نحواً من ١٥٠٠ طفل من هذا العدد الضخم حازوا (م ١٤٠) فأكثر مما رفعهم الى صفوف العباقرة

هذا العدد من العبقريين نما الآن واشتد وانغمر في الحياة يكافح ليكسب قوته ؛ وهم يخترقون سبلهم في نجاح تنقطع دونه أعناق زملائهم

والبنون والبنات من هذا العدد تزوجوا من أناس هم دونهم في الذكاء بمقدار ٢٥ درجة وأنجبوا أطفالاً عند هذا المستوى تقريباً ، وهو يقرب جداً من مستوى ذكاء آباء العبقريين وأخواتهم

والآن تنكشف أبحاث الدكتور تيرمن عن أشياء تبعث في النفس الدهش : فان ٢٥ ٪ من عباقرته نجحوا في الحياة نجاحاً فاق كل ما جناه الباقون ، و ٥٠ ٪ بلغوا مستوى متوسطاً والباقي أخفقوا اخفاقاً ظاهراً . وكان ما يعنيه الفئة العامية من مدة يربو كثيراً على أضعاف

ما جناه القسم المتخلف . وان أعجب العجب في ما جاء به الدكتور تيرمن هو أن فئتين من عباقرة الاطفال أثبتت التجارب تساويهما في الذكاء ، وعاشا معاً زميلين في الدرس وفي المدرسة نفسها ظهرت احداهما — مع ذلك — على الاخرى ، لاريب ، في أن عاملاً بيئياً أثر في كل من الفئتين فأحدث هذا الفرق الواضح . ذلك العامل هو — كما قال الدكتور تيرمن — البيئة المنزلية وما بثرت في نفس الطفل من غراس الشخصية . فأطفال القمة هم أبناء الأثرياء الذين يستطيعون أن يهيئوا لابنائهم حياة راقية هادئة مستقرة . أما أفراد الطبقة الدنيا فهم غراس بيوت لا تعرف الهدوء ولا السعادة ، والآباء فقراء ، جلهم غرباء ترهقهم ثقافتهم الاجنبية وتثقف العيش في وقت معاً . وهكذا غلبت على الأطفال البيئة المنزلية فجذبتهم إلى أسفل ، الى أسفل ...

وفي الحق إن الأطفال الموهوبين لا يؤدون عملهم المدرسي على الوجه الاكمل ، لأن المادة تضجرهم فيرفضون العمل الا أن يجدوا فيه المتعة ، ثم قد تأتي الصدفة فتحيل حياة العبقري الى شيء آخر : فتلا : لبوتن كان قد انتهى الى أن يكون فلاحاً اميًّا لولا أن زار — ذات مرة — طالباً في الجامعة من ذوي قرابته . وفراداي هجر المدرسة في الرابعة عشرة من عمره .. هجرها الى الأبد ... ولكن مجرى حياته تغير حين قرأ موضوعاً عن الكهربي في احدى دوائر المعارف . وانه ليقال إن قرابة نصف العباقرة تبدو عليهم سيماء الذكاء وعودهم ما يبرح لدناً ، ورُبعهم يشب دون ان ينبيء عن شيء من العبقرية

ولقد اثبتت التجارب أن الذكاء الحاد وليد الوراثة ، على حين أن الشخصية والخصائص هما من نواتج البيئة ، وأن التدريب السديد يستطيع ان يخلق من العبقرية بالقوة عبقرية بالفعل ، وأن أهم العوامل في تكوين هذه العبقرية اثنان : الحافز ، وهو أن يعيش المرء في بيئة تتطلب مقدرة عظمى وتقدر هذه المقدرة حق قدرها ؛ ثم الشعور بالأمان والهدوء منذ فجر الحياة

وإن ما يصدق على العبقريين ينطبق ايضاً على مَن دونهم ، فالذكاء والشخصية عند المتوسطين من الناس يتأرجحان إذ هما وجدا ظروفاً ملائمة طيبة . هذه القاعدة المهمة الواضحة يتجاهلها ، أو يتغاضى عنها القائمون على التربية ابتداءً من الوالدين الى الدولة

ولقد آن لنا العلم عن السبب الذي يجب من أجله أن ندفع عقولنا الى العمل ، وأن نزوّد الجيل الناشيء كل ما نستطيع من تدريب وتجارب نافعة والطمئنان ثم الشعور بالقوة والنجاح